

## حتى الموت له جمالياته وطقوسه

أربع سنوات قضيتها فى الأقصر (أترع) الجمال فى صورة مولد سيدى أبو الحجاج المحتشد بألوان الفن الشعبي ، وإن كنت لم أكن أدركه ، ولم أقو على فهمه ، فقط شربته ذاكرتى على مهل عاماً بعد عام ، بل لحظة بعد أخرى. كانت صورة الحياة اليومية فى هذه المدينة الجنوبية السمراء مليئة بألوان الإيقاع ، إما على الحناطير التى تزف الأعراس فتطلق الغناء (يا أم التوب أخضر ليمونى يا أم التوب) أيضاً كانت مواكب جنازات الأقباط عبارة عن عرض فنى كامل يمر بالقرب من شبابيك شقتنا فى طريقه إلى كنيسة الأقباط الأورثوذكس تتقدمه فرقة نحاسية لغلمان الملجأ يعزفون لحناً جنازياً لم أنسه حتى الآن ! يسير هؤلاء الأطفال فى خطى بطيئة حزينة موقعه تجئ خلفهم عربة مذهبة محاطة بأشكال الملائكة المحلقين.. يشف زجاجها عن تابوت مغطى بالحرائر الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، ثم يسير خلف هذه العربة بأحصنتها المزيّنة المغطاة بالسواد ، أربعة من الشمامسة يشدون ملاءة سوداء من أطرافها مرسوم عليها صليب أبيض يسمى بساط الرحمة يغنون بصوت أجش وقور وحزين ومن خلفهم مجموعة أخرى يؤدون نفس الغناء فى وداع الميت.. حتى الموت له جمالياته وطقوسه ، كل هذا فى نسق واحد متصل. حتى أمى كانت الدمعة تطفّر من

عينها حين يمر هذا الموكب بأصواته و إيقاعاته الحزينة.

أما رحيل الفقراء و العامة إلى العالم الآخر كانت له طقوس عجيبة أو مخيفة أخرى ، حين كانت النساء تخضب ساعديها (بالنيلة الزرقاء) ويضعن الطمى فوق الرؤوس الحاسرة، فتثبّت الشعر كما لو كان منحوتاً من الصلصال وبعض النساء يربطن قطع القماش الأسود حول أجسادهن ويبدأن فى العويل والنديب والتلويح بالطرح السوداء (الشلو والشلشلة) تتقدمهم ندابات شبه محترفات يحملن الدفوف الكبيرة، ولاحظت أن بعض النساء العجائز يحملن عصى الشوم، يدقن بها الأرض دقات عنيفة ولكنها منتظمة كأنهن يحتجن على الأرض التى سوف تأخذ عزيزهن بلا رجعة.

باختصار فالأقصر مدينة كلها: فن قديم وفن قائم مضى بكل أسف. وظلت الأقصر مدينة الذكريات قائمة ومبينة فى ذاكرتى كالمأكيث، وللأسف فى كل زيارة لها، تحدث لى صدمة حين أدرك أن صرحاً من صروح خيالى قد انهدم، وفى كل مرة كنت أقرر حزناً - فى نفسى - ألا أعود مرة أخرى حتى لا أرى حبيبتي وقد تشوهت ملامحها، بعد أن اعتدى عليها الهكسوس الجدد، وهكذا أصبح فننا الشعبى بشكل عام، وفن المصريين بخاصة، فن يهمنى جداً، فأتابعه كلما واتتنى الفرصة.. فى مولد أو فرح أو مناسبة مسيحية أو إسلامية وفى ليالى رمضان، إلى إن استقر بى الحال فأصبحت ضمن العاملين فى مسرح السامر، وكنت من المتردين عليه قبل أن أعمل به.